مواجهة التيارات التكفيرية أسبابها وسبل معالجتها لاستعادة وحدة الأمة

مواجهة التيارات التكفيرية أسبابها وسبل معالجتها لاستعادة وحدة الأمة

أ.م.د. هدى محمد سلمان

جامعة بغداد – مركز البحوث التربوية والنفسية

إن ا لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم , عندما أنطلقت الدعوه لإعادة بناء الأمة الإسلامية علت العديد من الأصوات ونادت باستحالة ذلك ، حيث أن سلوكياتنا ما هي إلا نتاج حضارة و تاريخ طويل وعادات راسخة في الأمة الإسلامية ارتبطت بهويتنا العربية , بل قد جنح البعض في الشرح بإسهاب في ارتباط هذه العادات بجينات الإنسان العربي و المسلم , بما يؤكد وجهة نظرهم باستحالة التغيير , حيث اعتبروا هذه السلوكيات هي الهوية العربية وثقافة المجتمعات العربية الأصلية.

ثقافة المجتمع تعتبر من أهم المفاهيم الحديثة في القرن الحالي , والتي تعبر عن مفاهيم ومعتقدات المجتمعات وسلوكياتهم ..وقد عرفها علماء علم أصول الإنسان (الأنثروبولوجي) بأنها "البرمجة الجماعية التي يمارسها المجتمع علي عقول ابنائة" .. فهي التي تحدد الرموز و المفاهيم و الأنماط السائدة بالمجتمع , تحدد من هو البطل و من هو الشرير , معايير التفضيل للسلوكيات , الشعائر الاجتماعية و أنماط السلوك المتعارف عليها داخل المجتمع , القيم السائدة بالمجتمع.

والثقافة تأتي عن طريق التعلم و الوراثة , وهي تتميز بدرجة عالية من الاستقرار , وتؤثر في طريقة المعيشة , وكيفية تنظيم شئون المجتمع و كيفية إدراك أفراده للأمور .

ولكن هل الثقافة الحالية السائدة بالشعوب العربية هي الثقافة الإسلامية الأصلية , أم تم تحريفها؟

هل يدعوا الدين الإسلامي للثقافة القائمة بالعالم العربي ؟

ثم التساؤل الأخير إذا دعانا الدين لهذه الثقافة فهل يمكننا تغيرها ؟ و كيف؟

خلفية وإشكالية التكفيريين :

طغت على سطح المشهد الثقافي والإجتماعي في السنوات الأخيرة أفكار مشحونة بالغلو والتطرف، وممارسات إرهابية فيها الحدّ الأقصى من حالات استخدام العنف. فالأفكار التي جُنّدت لها أقلام، ومواقع تأهيل، وإعلام متنوع الأدوات والأساليب، يضاف إلى ذلك مبالغ ماليّة هائلة، هذه الأفكار إنّما هي أفكار تذهب إلى الأقصى في حدّ التعصب، وقد وصل قسم منها إلى مواقف تكفيريّة أعطى أصحابها -مع قصورهم الفكري- لأنفسهم محاكمة الآخر والحكم عليه، كأنّهم لم يقرأوا قول الله تعالى: "فذكّر إنما أنت مذكّر * لست عليهم بمسيطر" (سورة الغاشية، الآيتان 21، 22).

إن أحداً لم يُعطَ حقّ الحكم على النّاس، والتطاول عليهم، هذا غير أن الإنسان مستخلف في الأرض، وله التكريم بمشيئة الخالق سبحانه لقوله تعالى: "ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البرّ والبحر ورزقناهم من الطيّبات وفضّلناهم على كثير ممّن خلقنا تفضيلاً" (سورة الإسراء، الآية 70). هذا الإنسان الذي كتب له الله تعالى التكريم، وجاء بشأنه في الأثر: "الإنسان بنيان الله - تعالى- ملعون من هدمه." هل يحقّ لأحد أن يهينه أو يحقّره؟ وهل هو مرخّص لأحد أن يعتدي على حرماته وحريّاته؟ وهل أعطي أحد الحقّ في تكفيره واستباحة دمه؟

إنّ الحال التي نشرت حالة من القلق، لا بل قل الهلع، عند كثيرين، وأنتجت حالات من الإحباط والخوف على الذات وعلى الأرحام والأهل، وعلى الخصوصيّات، ولّدت فضاءً فكرياً وسلوكياً أسّس للفتن والاقتتال، وزرع الرعب والتخريب في ساحات ومساحات، وأصبحت الحالة من المهدّدات التي قد تفتك بالنسيج الإجتماعي والوطني، وهذه المفاهيم والمفاعيل تشكل عدواناً على الأمّة العربية، والعالم الإسلامي، والعالم أجمع، ولكلّ المكوّنات والمقوّمات التي يقوم عليها الاجتماع البشري الذي يكون مستقراً يسوده الأمان، ويحقّق إسعاد الإنسان ليكون ذلك في إطار التزام مشيئة الخالق سبحانه الذي قضى بتكريم بني آدم.

أمام هذه التحديات على المجتمع بنيوياً تتوالى الأسئلة والتساؤلات، ويجد المتابع الساحاتِ منداحة لإشكاليات عديدة، منها:

ما العوامل التي تجعل إنساناً يخالف فطرته، وشرعه، والمنظومات القيمية؟

كيف تضيع اتجاهات إبرة البوصلة من جماعات ومجموعات، ألا يوجد بينهم ناصح أمين؟ ما الأسباب والميول الغريزية التي تسيطر على العقل والفهم فتجعل بعضهم تائهين يخبطون عشوائياً فكراً وسلوكاً؟

كيف يقبل إنسان مفهوماً مفاده أنّه موكل بالحكم على النّاس، وأنّ جيوبه مثقلة بمفاتيح الجنان والرضوان يوزّعها وفق أهوائه؟

هل العلّة في التنشئة والإعداد، أم في النقص المعرفي، أم في اتّباع المصالح ما يجعل الفرد التكفيري من نهّازي الفرص ومستبيحي الحرمات خدمة لأناه؟

يحتاج موضوع سبل معالجة المصابين بمرض التعصب والفئوية، أو بداء التكفير إلى جلاء العوامل التي أسهمت في تكوين شخصية المتطرف أو التكفيري، وهذه العوامل متعددة منها ما هو ذاتي، ومنها ما تشكّل بتأثير الفضاء الثقافي، أو أنماط العيش القاسية، ومنها ما يكون لأسباب معرفية، أو سياسية. ويندرج بين هذه العوامل ما يلي:

1-الجهل أو المعرفة الناقصة:

الجهل مرض يجعل الجاهل تربة خصبة لكل زرع فتنوي وغريزي، لأنه لا استقرار عنده في المفاهيم أو المشاعر، ولا هو واثق الخطى، والجاهل يسهل على المتلاعبين بالعقول استمالته ليخدم أهواءهم، مقابل فتات موائد يقدمونها له. والأخطر من الجاهل من حصّل معارف قليلة وناقصة، لأن الجاهل قد يهدأ، ويقبل بعدها الإرشاد والتعليم، أما نصف المتعلّم فإنّه يصاب بالعُجْب، ويزعم أنه غير محتاج لتعليم ولا إلى نصح يسديه الآخرون، لا بل يقاوم كل فكر مستنير، وكلّ توجيه رشيد، فيكون في موقفه هذا عائقاً أمام نشر الهدى، والحكمة، والعلوم الأصيلة.

وإن الجهلة وأشباه المتعلمين يشكّلون جماعات ضغط على العلماء والفقهاء الذين قد يعرضون عن طرح فكرهم الإنقاذي للأجيال، والذي يعالج مشكلات المجتمع بسبب ما يواجههم به الجهلة وأشباه المتعلمين من عنف وإنكار، أو بسبب ما يتهددهم من أذى يسببه هؤلاء.

إن هذه الأسباب هي التي قادت إلى بروز ما تشهده المجتمعات الإسلامية والعربية من ظواهر الغلوّ والتكفير والعنف، والتي سفكت دماء، وهدمت مؤسسات وزرعت الرعب هنا وهناك، كما أنّ الجهلة من العوام الذين يسيئون للدين بمفاهيمهم الخاطئة وعلومهم المرتجلة يمارسون شكلاً من أشكال التسلّط والديكتاتورية على العلماء المستنيرين الذين كثيراً ما يحجمون عن إعلان موقف، أو إطلاق مبادرة لا لشيء إلاّ لخوفهم من استغلال من قبل العوام في غير ما يقصده صاحب الموقف أو المبادرة." وقد أحسن صُنْعاً الشيخ محمد الغزالي في تشخيص حالة الجهلة وضيّقي الأفق، حيث قال: "المصيبة أن بعض المتحدثين في الإسلام لديهم مقدار هائل من قصر النظر وقلّة الوعي، والأدهى أن يتحوّل هذا الفكر السقيم إلى مبدأ تُؤلّف فيه كتب، وتنتهي إليه مواقف."

2-الفهم المغلوط:

إن فهم النصوص، والأحكام الشرعية على غير حقيقتها، والفهم الملتبس لأمور أخرى، والتعسّف في استخدام النصوص دون دراية بسبب أشخاص غير مؤهلين، أو آخرين تدفعهم نفوسهم الوضيعة إلى التقرّب من أصحاب النفوذ والسلطان أو المال إلى التشويه والتزوير، وفي كل هذا نجد متطفلين يسمحون لأنفسهم التلاعب بالفهم والفقه، وبالنصوص والنفوس، فيحمّلونها ما ليس منها، والأصل أن تُردّ الأمور إلى أهلها، وأن يكون الاجتهاد وبعده الإفتاء من مهمّات أهل الاختصاص، والفرد في هذه العملية يقول ما عنده مجتهداً وكفى. وقد وجّه الحقّ سبحانه إلى هذا في الآية الكريمة: ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافّة فلولا نفر من كلّ فرقة منهم طائفة ليتفقّهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون.﴾ (سورة التوبة، الآية 122).

فالفقهاء نخبة متميّزة تتسم شخصياتها بالقوة في قول الحقّ، وبالأمانة، وبالقدر الرفيع من المستوى المعرفي، مع فطنة ونباهة، ومواكبة للنوازل والتحديات. وأما ما هو حاصل مع مجموعات التفسيق والتكفير فإنه أفهام بعدت الشّقة بأصحابها عن جادة الحقّ والحقيقة . "إن المفاهيم المشوشة أو المشوّهة التي تطرحها جماعات وفرق، أو يطرحها أفراد وأمراء جماعات في خطابهم أو كتاباتهم ومنشوراتهم تسهم في تشويش الفهم عند قبيل من المسلمين فيقع بسبب ذلك التضليل، ويأتي أصحاب الأهواء فيقودون هذه المجموعات المغرّر بها إلى حيث ضررها وضرر المجتمع...

... إن عدداً غير قليل من المغرضين وأهل الأهواء الذين يستترون وراء شعارات دينية تراهم يتشدّدون في بعض الشكليات ويتهاونون في أمور جوهرية."

هكذا يقود الفهم الخاطئ إلى ضلالات، وإلى تشتيت الجهود في غير موضعها المناسب، وإلى مواقف أساسها مفاهيم سطحية لا ترقى إلى مستوى سبر أغوار المعرفة، ونجد أن أصحاب الأفهام القاصرة معتنون

بالمظهر ولا يتجاوزونه والخلاصة هي: "كلما وجدنا الشخص يركّز على الشّكل والمظهر يكون ذلك دليلاً على فراغ في المضمون والجوهر."

3-التعصّب:

لا مساحة لقاء بين الإيمان الحقّ وبين التعصّبات الرديئة التي يلتزمها بعض الناس متمسكاً بطرف من الدين، ومثل هذا الشخص المتعصب هو الذي جاء البلاغ الإلهي محذراً منه، وذلك لأن تطرفه وطرفيته تجعلانه متقلّباً لا قرار له ولا استقرار، وهو شخص تغريه الجزرات الحلوات وتخيفه العصي إن وجهن إليه. ففي الآية الكريمة: ﴿ومن النّاس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين.﴾ سورة الحج، الآية 11.

إن من يعبدون الله تعالى على حرف "ابتلوا بقصر النظر والجهل لذلك نراهم يقفون عند تخوم الحقيقة، ويقنعون بذلك، ووقوفهم هذا عند طرف الأمر الديني تتولّد عنه حالات انفعالية بعيدة عن الصواب، وتتركهم على حرف هاوية تسقطهم فيها أية عاصفة أو فتنة مهما كان مقدارها. هذا النوع من العابدين هو من يُخشى عليه، هؤلاء الذين يعبدون الله على حرف، ويبقون على جهلهم وتعنّتهم، ويغلقون على أنفسهم أبواب التطوّر الفكري من خلال جمود ظنّوه محافظة، ومن خلال تعصّب ظنّوه تديناً، ومن خلال تطرف حسبوه التزاماً بما أمر به الله تعالى."

والتعصب مرض حذّر منه الحديث النبوي في أكثر من نص منها: "من قاتل تحت راية عُمّيّة يدعو إلى عصبية، أو يغضب لعصبيّة، فقُتِل فقتلته جاهلية." والراية العُميّة: الراية التي تكون غير واضحة الأهداف والمقاصد.وفي نصّ آخر: "من قاتل تحت راية عُمّية يغضب لعصبية، أو يدعو إلى عصبية، أو ينصر عصبية، وقُتِل فقتلته جاهلية."

فالمؤمن الحقّ يقاتل مجاهداً في سبيل الحقّ والواجب، ولمقاصد جلية حفظاً للمقدسات والوطن والكرامات.

والعصبية تكون باباً للاقتتال المُهلك، والمدمّر للنسيج الإجتماعي، وفي ذلك تفريط بحرمة الدّم والمال والعرض. وقد نهى الرسول عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه عن ذلك، لأن الاقتتال وضرب الأعناق بين المؤمنين، وبين مكوّنات وطن الأمة إنّما هو سبيل تقود إلى الكفر، وفي نصّ خطبة حجّة الوداع في العام العاشر للهجرة، جاء الخطاب النبوي الآتي: "ألا فلا ترجعوا بعدي ضّلالاً يضرب بعضكم رقاب بعض."

4-الأحياء المهمّشة والفقر والبطالة:

إن المواقع السكنية التي تتشكّل منها الأحياء أو البلدات الإفتراضية، أو ما يسمّيه الباحثون الإجتماعيون: الأحياء المهمشة، التي هي ما يشكل أحزمة بؤس حول المدن، وتكون من تكوينات عشوائية نسباً وصلة، فلا يجمع بينها أي نسيج، ومثلها الدساكر والقرى النائية الموغلة في البداوة أو الأرياف المعزولة، تشكّل الحاضنات الرئيسات للانحراف، والتفريط والإفراط.

وما يسهم في نمو التطرف، وبكل الاتجاهات، التطرف في التفريط بالقيم والمثل، أو التطرف في الإفراط والغلو الذي يصل إلى الأحكام والمواقف التكفيرية، إنما هو الجهل وندرة التعليم حيث يزداد التسرّب المدرسي في مثل هذه التجمعات، ويترافق مع ذلك الفقر والعوز، وتزداد نسبة العاطلين عن العمل، كل ذلك عوامل اجتماعية للفكر التكفيري.

ففي الأثر الإسلامي: "اللّهمّ إنّا نعوذ بك من الكفر والفقر."

5-الاستبداد والاستعباد:

تردّد قول في المأثور العربي هو: "العدل إن دام عمّر والظلم إن دام دمّر." فالاستبداد داء عضال يجعل الفرد غير آمن على نفسه، ولا على أسرته، ولا على حرماته وخصوصياته وممتلكاته. وأسير الاستبداد يصبح في مرتبة الرقيق، ومشلول الطاقة كسولاً، يقظته كنومه، وحياته كموته.

"المستبد عدوّ الحقّ، عدوّ الحرّيّة وقاتلهما، والحقّ أبو البشر، والحرّيّة أمّهم، والعوام صبية أيتام نيام لا يعلمون شيئاً، والعلماء هم إخوتهم الراشدون، إن أيقظوهم هبّوا وإن دعوهم لبّوا وإلّا فيتصل نومهم بالموت.

المستبد يتجاوز الحدّ ما لم ير حاجزاً من حديد، فلو رأى الظّالم على جنب المظلوم سيفاً لما أقدم على الظّلم، كما يقال: الاستعداد للحرب يمنع الحرب." (ص 42).

إن الاستبداد السياسي (الديكتاتورية) معول هدم لوحدة المجتمع واستقراره وترقّيه، وأقبية السجون وزنزاناتها هي أمكنة يعشعش فيها التطرّف، وهي معاهد يتخرّج منه المتطرفون والإرهابيون والناقمون على كلّ شيء، وبذلك يكون الاستبداد بين أبرز مكوّنات الشخصية المتطرفة.

6-الاستعمار والصهيونية:

إن العدوان المتصل منذ قرون من قبل الفرنجة، فالأوروبيين، فالأمريكان، وما نتج عن ذلك ولا يزال من أشكال الاستعباد والاحتلال الظالم الذي استباح ولا يزال كل الخصوصيات، حيث اعتدوا على كرامة الإنسان وحقوقه، وعلى المقدسات بالتدنيس، وعلى الملكيات والثروات فنهبوها ولا يزالون، وعلى اللغة والتراث والفكر فقد حاولوا تشويهه، ودفع الناس للتنكر له، أما اغتصاب فلسطين وأراضٍ مجاورة لها، وتدنيس القدس والمقدسات، وما يرافق ذلك من أعمال التهويد، ومن استخدام تجليات العنصرية الصهيونية في الحدّ الأقصى من العنف؛ إن كل ذلك اقتضى التزام خيار المقاومة فلسطينياً وعربياً، لكنّ الاحتلال مع التهويد والتهديد تنتج عنه حالات انفعالية غير مدروسة.

إنّ الاستعمار الأوروبي الأمريكي تماهى مع الإرادة الصهيونيّة، وبات المصطلح الأصوب أن يقال: الصهيوأمريكان.

ومن أشكال العدوان الصهيوأمريكي والأوروبي العدوان الثقافي والفكري، الذي يبرز في التناول المسيء للرموز الدينيّة، أو للمنظومات القيميّة العربيّة والإسلاميّة، وحتّى الرموز المسيحيّة لم تنجُ من تطاولهم؛ يُضاف إلى ذلك المؤسّسات التعليميّة والإعلاميّة، وما تطرحه من مفاهيم استفزازيّة تدفع إلى حالات من ردّات الفعل المؤذية التي قد تصل إلى حدّ العنف والغضب اللذين يقودان إلى حالات من الغلوّ والتطرّف.

7- الإعلام:

إنّ الإعلام بكلّ أنواعه شكّل ويشكّل مصنعاً رئيساً للإرهاب والتطرّف، وربّما إلى تغذية الفكر التكفيري. فالإعلام المتعدّد الأساليب والوسائل يسهم في صناعة الرأي العام، فإمّا أن يوجّه إلى المواقف الرصينة الحكيمة، وإمّا أنّه يقود الناس -خاصّة الدهماء منهم- إلى الغوغائيّة والغرائزيّة، ممن يصدر عنهم العنف غير المشروع، والمواقف والممارسات التي تستبيح الدماء، وتنشر الفتنة.

وسائل الإعلام هي: الحوار الثنائي، والندوة، والمحاضرة، والمؤتمر، والمعرض، وإبداعات الفنون والآداب، والصحافة، والإذاعات، والتلفزة، والسينما، والشبكة البينيّة، ووسائل الاتصال والتواصل؛ يضاف إلى ذلك الوعظ والخطاب الديني؛ فكلّ هذا الإعلام فيه ما فيه من المضامين التحريضيّة، والكلام الفئوي الذي يغذّي التعصّبات الرديئة، ويظهر ذلك عندما تستضيف المواقع الإعلاميّة جهلة وأنصاف متعلّمين ممّن يدّعون الخبرة في الخطاب الديني أو السياسي، فيكون لخطابهم آثار تدميريّة على الرأي العام، ومن المؤسّسات الإعلامية التي تسقط في مثل هذه المزالق من تدّعي الحرص على الوحدة الوطنيّة أو وحدة المسلمين، وهناك الإعلان الفاضح أو بعض المناسبات الفئويّة التي يتمّ عرضها،

ويكون ذلك مادّة لردّات الفعل على المقلب الآخر.

مقترحات في سبيل المعالجة للتكفيريين :

إنّ الغلوّ في الدين، أو السياسة، والإفراط في استخدام القوّة من قبل الصهيوأمريكان، أو من مجموعات هنا وهناك تحت مسمّيات وعناوين عديدة، ومنها حالات التكفير والترهيب والاستباحة للحرمات؛ يقتضي العمل لمعالجة هذه الأفكار الهدّامة، وأنماط السلوك والأفعال الناتجة منها، وخطوات المعالجة يندرج بينها الإجراءات الآتية:

1- سياسياً على المستوى الإقليمي والدولي:

إنّ معالجة الغلوّ والتطرّف يحتاج في الملفّ السياسي إلى الخطوات الآتية:

أ- اعتماد نظام دولي متوازن يحترم حقوق الأمم والشعوب في الاستقلال والتحرّر، ويكون ذلك بوقف الأطماع الاستعماريّة التي يظهر بعضها من خلال مشروع الشرق الأوسط الجديد الصهيوأمريكي الموجّه ضدّ الأمّة العربيّة والعالم الإسلامي، وأن تقوم المواقف في المؤسسات الدولية على أساس العدالة وكرامة الشعوب.

ب- وقف نشر القواعد العسكريّة الأمريكيّة والأطلسيّة وسواها في بقاع كثيرة من العالم، وفي المحيطات والبحار، وما يوزّعه ذلك من رعب عالمي أكثر تأثيراً من فرد أو مجموعة صغيرة، والصحيح وقف إرهاب الدولة الذي يمارسه الصهيوأمريكان ، وذلك يشكّل مدخلاً سليماً للمعالجة الناجعة.

ج- الذهاب إلى منظومة اقتصاديّة عادلة توقف السلب واللصوصيّة في سرقة ثروات الشعوب، ووقف الاتجاهات الرأسماليّة المتوحّشة التي تريد لبلادنا أن تكون مناجم للخامات وأسواقاً لتصريف إنتاجهم. يُضاف إلى ذلك تقديم القدر الكافي من الامكانات الأوروبيّة والأمريكيّة لأفريقيا وآسيا في مجال التنمية، وذلك في إطار تعويض قسم مما سرقوه من هاتين القارّتين، لأنّ المعتدى عليه لن يسكت إلاّ في حال أوقف المعتدي عدوانه وإجرامه، ودفع ما هو واجب عليه، وما في ذمّته من حقوق للآخرين.

د- إنهاء الاحتلال الصهيوني لفلسطين ولأراضٍ عربيّة مجاورة، وعودة المحتلين إلى بلادهم الأصليّة تمهيداً لحقّ العودة لكلّ فلسطينيّ إلى ترابه الوطني، وديارِه. والمطلوب وقف أعمال التهويد للمقدّسات وللتراث لأنّ ذلك يؤسّس لعلاقات عربيّة وإسلاميّة ومسيحيّة سليمة مع القوى والدول عموماً.

2- عقديّاً ودينيّاً:

إنّ التنوّع هو الأصل، وهذا التنوّع شاءه الخالق سبحانه وبذلك تكون كلّ دعوة لأحاديّة الانتماء إنّما هي دعوة لمعاندة آيات الله تعالى في النظام الكوني. ويفيد في هذا الموقع جلاء الموقف الإسلامي من التنوّع، وهو الآتي:

أ- إنّ التنوّع مشيئة ربّانيّة علويّة، ولو شاء الله تعالى لكان الناس أمّة واحدة، إن لجهة العقيدة، أو لجهة الانتماء المجتمعي وطنيّاً وقوميّاً، وذلك مبيّن في قوله تعالى: ﴿ولو شاء ربّك لجعل الناس أمّة واحدة ولا يزالون مختلفين.﴾ (سورة هود، الآية 118).

وقال تعالى: ﴿ يا أيّها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم إنّ الله عليم خبير.﴾(سورة الحجرات، الآية 13).

ب- إنّ حامل الرسالة المسلم، أو المؤمن برسالة سماويّة أخرى، يدعو إلى ما يؤمن به والمسلم مطالب أن يدعو إلى الإسلام بقوله وفعله، لكن القاعدة هي: إنّ الإنسان حرٌّ فيما يعتنقه، ولا يحقّ لأحد أن يكرهه، أو يتعدّى عليه، أو أن يملي عليه.

قال تعالى: ﴿لا إكراه في الدين قد تبيّن الرشد من الغيّ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم.﴾ (سورة البقرة، الآية 256).

وقال تعالى: ﴿وقل الحقّ من ربّكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.﴾ (سورة الكهف، الآية 29)

وقال تعالى:﴿فذكّر إنّما أنت مذكّر. لست عليهم بمسيطر.﴾ (سورة الغاشية، الآيتان 21،22).

ج- إنّ الناس متنوّعو العقائد، والحكم عليهم أمر بيد الله تعالى، ولم يُعطَ أحد حقّ الفصل وإصدار الأحكام بحقهم في هذا الكون، والقاضي هو الله تعالى في اليوم الآخر. وقد قال تعالى:

﴿إنّ الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إنّ الله يفصل بينهم

يوم القيامة إنّ الله على كلّ شيء شهيد. (سورة الحج، الآية 17).

3- إسلاميّاً - مسيحيّاً:

إنّ المسلمين والمسيحيين يعيشون منذ عهد النبوّة حالة ميثاقيّة تقوم على الإيمان بالله الواحد، وباليوم الآخر، يوم الحساب والدنيويّة. وقد كانت وثائق كثيرة ليس من اختصاص هذا البحث عرضها، وعناوينها الأولى: عهد الرسول عليه الصلاة والسلام لنصارى نجران، والعهدة العمريّة التي أعطاها الخليفة الراشدي الثاني الفاروق عمر لبطريرك القدس صفرينوس، وغيرها كثير، وكلّها مؤسّسة على قاعدة ربّانيّة المصدر هي قول الله تعالى:

ولتجدنّ أقربهم مودّة للذين آمنوا الذين قالوا إنّا نصارى ذلك بأنّ منهم قسّيسين ورهباناً وأنّهم لا يستكبرون. (سورة المائدة، الآية 82).

4- إسلاميّاً - إسلاميّاً:

إنّ التنوّع الفقهي والفكري ثراء شرط أن يكون تحت سقف الوحدة، وملتزماً الأخوّة بعيداً من كلّ أشكال الفئويّة والتعصّب. المشكلة في أشخاص محرضين أو جهلة أو مرتزقة واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبيّن الله لكم آياته لعلّكم تهتدون.(سورة آل عمران، الآية 103).

5- وطنيّاً - قوميّاً:

مشيئة الله تعالى جعلتنا شعوباً وقبائل، وتوزّع الناس في انتماءات قوميّة لأمم لها خصائص وسمات، وفيها حبّ للوطن وتعلّق به، ومن ذلك تكون المواطنة وأساسها التنوّع، والنسيج الاجتماعي التي تكون خيوطه متنوعة طائفيّاً، ومذهبيّاً، وعرقيّاً.

إنّ الحلّ لكلّ أشكال التعصّب والفتنة، والتنازع تحت أيّ مسمّى استتر، أكان طائفيّاً، أم مذهبيّاً، أم عرقيّاً لن يكون بغير التزام الوطنيّة والوحدة في كلّ بلدٍ عربيّ، والعروبة الحضاريّة الجامعة على المستوى القومي حيث يتكوّن بهذا الانتماء نسيجٌ اجتماعيّ وطنيّ قوميّ، وهذه العروبة انتماء حضاريّ غير موجّه ضدّ أمم أخرى، بل الأمر نفسه مطلوب من كلّ أبناء وطنِ أمةٍ كي يرسّخوا وحدتهم، وكي يعطّلوا حالات الانقسام والاقتتال.

بالوطنيّة والعروبة نعالج التعصّب والفئويّة والتطرّف الذين قد يثيرون الفتن الشيطانيّة، وما يرافق ذلك من إرهاب وانفعالات توصل بعضهم إلى تكفير الآخر واستباحة حرماته

ثمة مقولات وأيدلوجيات ونظريات فكرية وسياسية في المنطقة العربية، تعاملتْ مع المجتمعات العربية بوصفها سديماً بشرياً خالياً من كل معنى تاريخي أو روحي أو فكري، وتم استخدام آليات قسرية وقهرية لدحر كل الخصوصيات الثقافية والأثنية لصالح الفكرة الشوفينية ..

وتم التعامل وفق هذا التصور الأيدلوجي الموغل في الشوفينية، مع المجتمعات العربية بوصفها الكيانات الإنسانية التي تحمل الرأي الواحد والفكر الواحد والزعيم الواحد.. فتم اختزال واختصار هذه المجتمعات بكل حيويتها التاريخية وفعاليتها الراهنة وديناميتها في الحياة في رأي واحد وفكرة واحدة وزعيم واحد.. وكل من يرفض هذا التصور السطحي لحياة وحركة المجتمعات العربية فإن مآله القمع والقهر والاستئصال..

وبفعل هذه العملية القسرية، دخلت بعض المجتمعات العربية في أتون تصحير حياتها الإنسانية، وإفقار وجودها التاريخي والحضاري فتحولت هذه المجتمعات بفعل الخيارات الأيدلوجية والسياسية النمطية والشوفينية، إلى مجتمعات بدون روح وبدون حيوية ثقافية وحضارية..

ومن جراء هذه الممارسة التي لا تنتمي إلى أي نسق حضاري، برزت على السطح في العديد من مجتمعاتنا العربية والإسلامية مشكلة التعددية الدينية والمذهبية والعرقية والقومية في المنطقة العربية..

ولكن من الضروري في هذا السياق، أن نوضح، أن المشكلة في جذورها ومسبباتها المباشرة وغير المباشرة ليست وليدة التعددية وحقائقها أو التمايز الديني والمذهبي ومدارسه واجتهاداته المتنوعة، وإنما هي وليدة السياسات والأيدلوجيات والنظريات والمقولات التي تعمل وفق أجندة قهرية وقسرية على تعميم نفسها، وعدم السماح لكل المقولات والنظريات والاجتهادات الأخرى من البروز أو التعريف بذاتها وخياراتها..

فالتعددية بكل مستوياتها هي حقيقة ثابتة في كل الوجود الإنساني، وإن كل جهد أيدلوجي أو سياسي أو ما أشبه يستهدف محاربة أو معاندة هذه الحقيقة الإنسانية، فإنه يؤسس بطريقة أو بأخرى لمشكلة وأزمة في طبيعة العلاقة وأنماط التواصل والتلاقي والتفاهم بين كل الأطياف التي تنتمي إلى مدارس واجتهادات متنوعة..

فمن حق الإنسان أي إنسان أن يعتز برؤيته ومدرسته الأيدلوجية والفكرية، ولكي ليس من حقه استخدام وسائل قسرية لتعميم رؤيته أو نظريته أو مقولاته على بقية أبناء المجتمع..

وإن الحقيقة الشاخصة أمامنا في هذا السياق هي: أن أغلب المشكلات والأزمات والتوترات التي تعانيها بعض مجتمعاتنا العربية في طبيعة العلاقة بين مكوناتها الدينية وتعبيراتها المذهبية وأطيافها الأثنية والقومية، يعود إلى سعي طرف يمتلك القدرة والسلطة لتعميم مقولاته واستخدام وسائل قهرية في هذا السياق، ما يدفع الأطراف والأطياف الأخرى للدفاع عن مقولاتها ونظرياتها.. فتفضي هذه العملية لتمترس وتخندق كل طيف للدفاع عن مقولاته وأيدلوجياته، فيتحول المجتمع الواحد إلى مجتمعات، والسقف الواحد إلى سقوف متعددة، فتبرز على السطح كل التوترات وأشكال التنافس والتدافع والصراع بين كل المجموعات البشرية..

من هنا فإننا نعتقد أن جذر المشكلة، ليس في وجود حقائق للتعددية والتنوع في مجتمعاتنا ، وإنما في طبيعة التعامل والإدارة لهذه الحقائق.. فالإدارة العنفية والقهرية لهذه الحقائق، تفضي إلى بروز كل أنواع التوترات بين أهل هذه الحقائق، أما الإدارة المرنة والاستيعابية، والتي تحترم خصوصيات كل الأطراف، وتؤسس لعلاقة حوارية مستديمة بين جميع المكونات، فإن حقائق التعددية، تتحول إلى مصدر للثراء المعرفي الاجتماعي والإنساني..

لهذا فإننا ندعو ونحث باستمرار على تبني خيار الحوار، وجعله من الثوابت الوطنية والاجتماعية.. لأنه هو الخيار الأمثل لتجسير العلاقة يبن أطياف المجتمع، وبناء معرفة متبادلة بينهما، وتحول دون انتشار حالة سوء الظن أو الانخراط في صراعات وسجالات لا تؤدي إلا إلى المزيد من تنمية الأحقاد والضغائن..

فالمطلوب هو أن نتحاور مع بعضنا البعض ونستمر في الحوار دون كلل أو ملل، حتى نخرج جميعا من سجوننا الوهمية..

والسؤال الذي يمكن أن يبرز في هذا السياق هو: كيف نعزز قيمة الحوار في مجتمعاتنا؟

1- من الضروري في هذا الإطار أن نفرق بين مفهوم الحوار، ومفهوم الجدال.. إذ إن الأخير لا يتعدى العمل على إثبات تفوق الذات على الآخر، بينما الحوار يتجه إلى تفكيك واقع سيئ وضاغط على الجميع، وهو استمرار حالة القطيعة أو الجفاء بين تعبيرات المجتمع والوطن الواحد..

فالحوار هو الاستماع الواعي والحقيقي للأقوال والآراء والأفكار، وعقد العزم على اتباع الأحس : قال

تعالى (الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه)..

بينما الجدال هجوم ودفاع، إفحام ومماحكة، والحوار فهم وتفاهم، تعارف وتواصل، اشتراك مستديم في صنع الحقيقة والرأي المشترك..

وعليه فإن الحوار لا يستهدف إقناع الآخرين بقناعات الذات، وإنما تعريفها على نحو حقيقي، لأن الحوار هو سبيل التواصل والتعايش..

2- ضرورة تطوير سياسات الاعتراف بالآخر المختلف والمغاير.. فلا يمكن في أي مجتمع أن تتعزز قيمة الحوار، بدون تطوير سياسات ومناهج الاعتراف بالآخر وجوداً ورأياً وحقوقاً..

ونحن على هذا الصعيد بحاجة إلى مبادرات ومشروعات وطنية متكاملة، تستهدف دعم وإسناد عملية الحوار الوطني، بسياسات ومشروعات تعرّف الأطياف ببعضها البعض، دون أن نسقط في عملية التعارف والاعتراف مشكلات التاريخ ومآزقه المتعددة..

فالاختلافات المعرفية والفقهية والتاريخية والاجتماعية والسياسية، من الضروري أن لا تدفعنا إلى الجفاء والقطيعة واصطناع الحواجز التي تحول دون التواصل والتعاون والحوار.. وذلك لأن الوحدة الداخلية للعرب والمسلمين، بحاجة دائماً إلى منهجية حضارية في التعامل مع الاختلافات والتنوعات، حتى يؤتي هذا التنوع ثماره على مستوى التعاون والتعاضد والوحدة.. والمنهجية الأخلاقية والحضارية الناظمة والضابطة للاختلافات والتباينات الداخلية، قوامها الحوار والتسامح وتنمية المشتركات وحسن الظن والإعذار، والاحترام المتبادل ومساواة الآخر بالذات..

3- من الضروري لنا مسلمين وعرباً جميعا أن نخرج من سجن الماضي المليء بالشكوك والفتن والحروب، والتركيز الراهن على ثقافة الوحدة بكل صورها ومستوياتها، القائمة على قاعدة احترام تنوعات المجتمع، واختلافاته الطبيعية المثرية لمسيرة المجتمع في كل الجوانب والمجالات.. والاقتناع الشديد والعميق ومن جميع الفرقاء والأطياف أن ثقافة الفتنة والعنف والإقصاء، لا تنتج إلا الدمار والحروب والموت.. أما ثقافة الحوار والسلم والتسامح والعفو فتبني، وتحررنا جميعاً من هواجسنا وعُقدنا، وتعمق في نفوسنا وعقولنا الشوق إلى الكرامة والوحدة..